

الباب الأول

شخصيات عربية

obeikandi.com

الفصل الأول

على بن أبى طالب.. قائداً سياسياً*

(*) بحث منشور في: المنار، مكتب المنار، القاهرة وباريس، يناير ١٩٨٩، من ص ١٣٤ - ١٥٠. وقد تم إعداد هذا البحث في صيغته الأولى عام ١٩٧٦، ونشر في مجلة: الشورى، طرابلس، يوليو ١٩٧٨، من ص ٦٧ - ٨١... وأجرينا عليه في الطبعة الراهنة تعديلات طفيفة جداً.

كان اختيارنا لعلی بن أبی طالب، بالذات، كموضوع لدراستنا عن أحد نماذج القيادة السياسية، اختياراً مرجعه إلى أهمية وحيوية الدور الذي لعبه علی بن أبی طالب في التاريخ العربي والإسلامي عموماً، وإلى مغزى هذا الدور، سواء من حيث حجمه واتساعه أو من حيث دلالاته العقائدية. فقد صار علی بن أبی طالب في التاريخ العربي والإسلامي رمزاً من رموز الثورة الدائمة، ورمزاً من رموز التمرد، وذلك منذ اللحظة التي استشهد فيها، وخاصة منذ اللحظة التي انتهى فيها النسل المباشر لعلی بن أبی طالب من الرجال في موقعة كربلاء.

ولسنا في معرض دراسة أسباب هذه الظاهرة، ولكن نكتفي بالقول أن علیاً - بما مثله في سيرة حياته من مفاهيم - كان وراء الكثير من الحركات السرية في الإسلام (حركات الشيعة) والكثير من الدول والحكومات الإسلامية، كما كان سنداً للحركات السياسية التي استندت إلى حق أهل البيت عموماً (العباسيين والفاطميين). فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذا الدور العلوي لم يكن مبنياً على الفراغ وإنما كان مؤسساً على ما تمتع به علی بن أبی طالب من صفات وما اتسمت به سيرة علی من مواقف، إذن لاستقام لنا لماذا اخترنا علی بن أبی طالب. وسوف نتركز عنايتنا على رسم صورة عامة للشخصية القيادية لعلی بن أبی طالب - كقائد سياسي، ومن ثم فإن ما نورده من معلومات واستنتاجات إنما يتركز على هذه الزاوية على وجه التحديد.

ولكي يتحقق الهدف من الدراسة - على الوجه الأكمل - لا بد أن نحدد النمط الذي يندرج فيه علی بن أبی طالب قائداً سياسياً، من بين أنماط القيادة السياسية.

ولما كان من الضروري أن يكون اختيار هذا النمط جزءاً من نظرية عامة عن القيادة السياسية، فإن من الضروري بالتالي أن يستند توصيفنا لعلی بن أبی طالب إلى نظرية عامة في أنماط ونماذج القائد السياسي، ويمكن مبدئياً أن ننطلق من نظرية «يونج»، وبحيث نميز بين سبعة أنماط من القيادة، على حد تعبير عالم السياسة العربي حامد ربيع:

١- القائد الرئيس Boss: وتكمن قدرته الحقيقية في التأثير على عناصر الموقف وتطويعها لصالحه.

٢- القائد الديمقراطي: ويمتاز بأنه يسير وراء الجماهير، ويتبنى مواقف «معتدلة».

٣- القائد البيروقراطي: وهو موظف صار قائداً سياسياً، غير قادر على اتخاذ القرار.

٤- القائد الدبلوماسي: وهو شديد المرونة مع المواقف التي تؤثر في مصالحه الشخصية. ولذلك فإنه مستعد لتلوين نفسه مع كل موقف في سبيل مصلحته.

٥- القائد الثوري أو المصلح: وهو رجل يمثل الكمال، ويرفض أية صعوبة عملية، ولا يقبل الحلول الوسطى والمساومة.

٦- مثير الفتن والقلاقل: Agitator وهو نوعية خاصة من القائد المصلح - وهو على استعداد للالتجاء إلى العنف في مختلف المواقف.

٧- القائد العقائدي: وهو صورة من صور القيادة الفكرية.

ومن غير المتصور أن نضع قائداً سياسياً بعينه تحت أحد النماذج السابقة كما هي، فالواقع دائماً أكثر تعقيداً من الحقائق المجردة، وإنما قصارى جهدنا أن نقرب بأحد النماذج ليصور تصويراً تقريبياً ونسبياً الشخصية القيادية التي ندرسها. ولا يعنى إطلاق مثل هذا النموذج على هذه الشخصية أنه يستوعبها استيعاباً كاملاً وإنما هو بالأحرى أداة منهجية للاقترب منها.

فإلى أى النماذج يمكن أن ينتمى على بن أبى طالب؟

من دراسة هذه الشخصية، المتعددة الجوانب، نستطيع أن نقول أنها أقرب ما تكون إلى شخصية «القائد الثورى»، ومن استقراء خصائص شخصية «القائد الثورى» نجد أنها تتميز أولاً بوجود حلم أو تصور تسعى إليه القيادة السياسية، أى بوجود نوع من المثالية السياسية.

وتتميز ثانياً بالسعى فى سبيل هذه المثالية دون اعتداد بالمصاعب ودون نظر إلى القائد الشخصى أو المصلحة الخاصة أو حتى وجود القائد الفرد الحى نفسه.

وتتميز ثالثاً بعدم القابلية للفساد والإفساد.

وقد تمثلت هذه الخصائص فى القيادة السياسية لعلى بن أبى طالب بالإضافة إلى سمات خاصة تتحرف من هذا المفهوم التجريدى العام وهو ما سوف يتضح لنا بعد دراسة هذه القيادة.

شخصية على بن أبى طالب:

تحدد القيادة السياسية، انطلاقاً من تفاعل نوعين من العوامل:

- عوامل ذاتية تمثل جماع شخصية القائد.

- عوامل موضوعية تتكون من مجموع الظروف المحيطة بهذه الشخصية، والتي تتفاعل معها الشخصية لتنتج نمطاً معيناً من أنماط السلوك القيادى.

ولكى نطبق النهج العلمى الصحيح، يلزم أن نتطرق من الخطوة الأولى فى المنهج وهى خطوة التجريد والتي اتبعناها فيما سبق من هذا البحث، هذا التجريد الذى تمثل فى تحديد النمط العام للشخصية القيادية لعلى بن أبى طالب، إلى خطوة ثانية هى «التقريب المتتابع» أو «التجسيد المتتالى» أى أن نحاول الاقترب بهذا النمط المثالى المجرد شيئاً فشيئاً مع الوقائع سواء الوقائع الذاتية أو الموضوعية، وهو ما يستلزم منا بحث هذين النوعين من العوامل، وهما

شخصية القائد أى تكوينه السيكولوجى، ثم العوامل الموضوعية أو البيئة الاجتماعية. وبعد أن نتاول هذين النوعين من العوامل فى فقرتين مستقلتين من البحث، سوف تنتهى بعملية «اختبار الصدق» أى مواجهة الوقائع بالتمط المجرد، أى مواجهة الخطوة الثانية بالخطوة الأولى لتجرى عملية التحقق من صدق والمقدمات.

ولذا فإنه يلزم أن نبدأ بتناول شخصية على بن أبى طالب، أى تكوينه السيكولوجى الذاتى. ونبادر بالقول إن التكوين السيكولوجى هو نتاج التفاعل بين العوامل العضوية والذهنية والاجتماعية بوصفها المكونات الأساسية لتكوين شخصية الإنسان، ويضاف إليها إذا انتهينا إلى بحث السلوك، تأثير النظام الاجتماعى، أى المجتمع فى زمان معين ومكان معين. وهو ما أسميناه بالعوامل الموضوعية أو البيئة الاجتماعية.

وفيما يلى نتناول عوامل التكوين السيكولوجى:

١- العامل العضوى فى تكوين على بن أبى طالب: وهنا ننقل ما قاله الأستاذ عباس العقاد فى كتابه «عبقريّة الإمام» حيث يقول: (نشأ رضى الله عنه رجلاً مكيّن البيان فى نشأته والكهولة، حافظاً لتكوينه المكيّن حتى ناهز الستين، وتدل أخباره - كما تدل صفاته - على قوة جسدية بالغة فى المتانة والصلابة، واشتهر عنه أنه لم يصارع أحداً إلا صرعه، ولم يبارز أحداً إلا قتله،^(١)).

٢- العامل الذهنى - السلوكى: أما عن الصفات الرئيسية والتي يصح أن نطلق عليها العوامل «التكوينية الأولية» والتي اشتهرت عن على منذ صغره و نشأته الأولى - فإن أهمها:

أ - الشجاعة - والشجاعة النادرة، وقد ساعد على ذلك تكوينه الجسدى كما أشرنا، فكان لا يقاقل إلا قتل، ولا ينازل إلا صرع.

ب- المروءة وعدم البغى: إذ لم يبدأ أحداً بقتال أو منازلة أو مواجهة، إلا إذا رأى ذلك أمراً لا مفر منه، فإذا نازل أو قاتل أو واجه أحداً، فإنه لا ييغى وإنما يقسط لا يعيد.

ج- الوعى الفكرى والاستعداد للتعليم الدائم: فقد اشتهر عن على بن أبى طالب أنه ملك ناصية الفكر والفقه والقضاء والخطابة، وإنه هو الذى أشار على (أبى الأسود الدؤلى) بإرساء قواعد «النحو» وأن مطارحاته ومناظراته الفكرية كانت المقدمات الأولى لعلم الكلام، وإن فتاواه كانت من ركائز الفقه والقضاء.

د - عدم التكلف: فقد كان يأبى الازدواجية فى السلوك وفى المظهر، ولا يرضى إلا بالوضوح فيهما.

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية الإمام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١، ص ٦-٧.

هـ- الزهد: بما يشمل ذلك من عدم التكالب على المنافع والمصالح العاجلة، وأبهة الملك.
٣- أما تأثير العامل الاجتماعي في نشأة علي بن أبي طالب، فنذكر الوقائع والظروف الآتية:

أ - رابطة الدم:

علي بن أبي طالب هاشمي، وبنو هاشم فرع من بني عبد مناف، وبنو عبد مناف فرع من قريش، وقريش إحدى قبائل الحجاز، والحجاز قطاع من الجزيرة العربية، ولسوف يتبين لنا فيما بعد قيمة كل جزئية من هذه الجزئيات: سواء أصله الهاشمي أو انتماءه القرشي... إلخ.

ب - الأب والأسرة:

أبوه (أبو طالب) عم الرسول ﷺ، ولم يكن أبو طالب غنياً، وإنما كان متوسط الحال، وكانت فترات القحط التي تنزل بقريش تصيب أبا طالب أيما إصابة وقد كان له أخوة ثلاث أكبر منه سناً هم جعفر وعقيل وطالب.

جـ- الزمرة والصحبة:

لما أصاب القحط قريشاً أشار الرسول عليه الصلاة والسلام على عميه حمزة والعباس أن يساعدا أبا طالب في حمل بعض أبنائه، فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفرًا وأخذ الرسول عليه السلام علياً، بينما استبقى أبو طالب أحب أبنائه لديه: عقيل. ولذا فقد نشأ علي في كنف الرسول وفي صحبته، فكان له وحده الزمرة ومجموعة الأصدقاء والرفقة، وقد كان لهذه الرفقة أثرها على تنشئة علي على الزهد وعدم التكلف وعلى الولوع بالتفكير والعمل الجاد.

د - إسلامه:

نشأ علي كما رأينا في كنف الرسول، فلا غرو أن أسلم وهو غلام في نحو العاشرة أو في السابعة - على اختلاف الرواة في ذلك، ولذا فقد اشتهر أن علياً قد «كرم الله وجهه» أي أنه لم يسجد لصنم قط، فهو لم يمارس قبل إسلامه عبادة الأوثان شأنه شأن سائر من أسلموا مع الرسول عليه السلام، إذ لم تكن سنه تسمح بعبادة الأصنام.

هذه هي العوامل الثلاثة: التي تمثل (الجسم والعقل والمجتمع)^(١). باعتبارها محددات التكوين السيكولوجي. ونلاحظ أن هذه العوامل الثلاثة قد اجتمعت لتفرز نوعية خاصة من نوعيات الشخصية الفردية. لدى علي بن أبي طالب، وقد قدر لهذه الشخصية حين تفاعلت مع

(١) د. يوسف مراد، شفاء النفس - وتجدر الإشارة إلى أن يوسف مراد، وهو رائد المدرسة التكاملية في علم النفس العربي، قد تجاهل دور النظام الاجتماعي وهو ما نحاول تلمسه هنا.

النظام الاجتماعي فيما بعد أن نتج لنا نموذجاً خاصاً من القيادة السياسية^(١).

النظام الاجتماعي في عصر علي بن أبي طالب:

ويعني هنا النظام الاجتماعي الذي واجهه علي بن أبي طالب حينما آلت إليه مقادير الأمور ليسير دفة القيادة السياسية للدولة الإسلامية، وهو النظام الذي ساد أقطار هذه الدولة عند مقتل الخليفة الثالث عثمان في عام ٣٥ بعد الهجرة.

ونستطيع القول إن هذا النظام الاجتماعي كان وليد عاملين:

- العامل الأول: هو مبادئ الدين الإسلامي، كما تجسدت في القرآن والسنة وفي أعمال (الشيخين) أبي بكر وعمر.

- العامل الثاني هو ظروف الأقطار الإسلامية الجديدة، التي دخلت في الدولة الإسلامية بالفتوح. وقد بدأ الفتح يسيراً حيناً في عصر أبي بكر الصديق نظراً لانشغاله في بداية خلافته للرسول عليه السلام بحروب الردة وتوطيد أركان الدولة بعد رحيل «القائد المؤسس».

ثم انطلق الفتح واسعاً عريضاً في عصر عمر بن الخطاب، واستمر صدرًا في عهد عثمان. وبينما كان النظام الاجتماعي في عصر الرسول وأبي بكر نظاماً عربياً إسلامياً خالصاً، كانت السيادة فيه نسبياً للقيم العربية الإسلامية، أي لتلك القيم التي أتى بها الإسلام ليقضى على الولاءات القبلية والعنصرية القديمة، ولتأسيس مجتمع جديد قائم على أولوية الرسالة، بينما ذلك كذلك فإن النظام الاجتماعي منذ انتشار الفتوح في عهد عمر، قد أخذ يشهد عنصرًا جديدًا، غريبًا على الرسالة، هو ظروف الأقطار المفتوحة التي لم تشهد مولد الرسالة «الثورة» وإنما هي مكمّن «الثروة».

وقد كان عمر بن الخطاب بحزمه وزهده - العنصر الحاسم الذي عصم الدولة الإسلامية الناشئة من الانزلاق والبعد عن (ثورية) الرسالة، وحقق عمر بن الخطاب ذلك بمحاسبة الولاة والعمال على الأقاليم خاصة في النواحي المالية والقضائية، فلا غرو أن حد عمر بن الخطاب من تأثير العوامل الطارئة على الرسالة، فحفظ للرسالة الجزء الأكبر من جوهرها باعتبارها قوة التغيير الاجتماعي.

(١) انظر في الأبعاد العامة للنمط القيادي لعلي بن أبي طالب بعض المراجع الهامة وخاصة:

- عباس محمود العقاد، عبقريّة الإمام.

- محمد عمارة، الفكر الاجتماعي لعلي بن أبي طالب، في: علي بن أبي طالب - نظرة عصرية جديدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٤، ص ٥-٤٤.

ومن المراجع العامة انظر: خالد محمد خالد، في رحاب علي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦.

- عبدالرحمن الشرقاوي، علي بن أبي طالب الجزء الأول والثاني، مكتبة غريب، القاهرة بدون تاريخ.

وبعد عمر، جاء عثمان بن عفان، وعثمان من سراة المسلمين، ومن رؤوس «أمية». وقد اتبع عثمان سنة مخالفة إلى حد كبير لسنة عمر بن الخطاب في سياسة الدولة الجديدة، فقد أرحى لأصحاب الثروة، وسر للفئات المتوسطة تكوين الثروة. واعتمد على ذوى قرابته وأولى عصبته في الأعمال والولايات، وأرحى كذلك في محاسبة الولاة على الأمصار ومنها الأمصار ذات الثروة وخاصة في العراق ومصر والشام.

وبذلك ساعدت سياسة عثمان بن عفان على إعطاء الغلبة للعامل الثانى، وهو ظروف الأقطار المفتوحة (الثروة) على الخاصية الرئيسية للعامل الأول: الرسالة (الثروة)، وهكذا أخذت تنشأ في الحجاز وفي الأقطار المفتوحة فئة اجتماعية جديدة من العرب المقيمين بها: من الولاة والجند، وأخذت تتطوّر لتكوين الثروة بدءاً من واقعة «السلطة» وتدمج من ثم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للأقطار المفتوحة، حيث لعبت (الدولة) دوراً رئيساً، حيث هي المالك الأصلي للأرض وحيث القرى تمثل كيانات جماعية تمارس العمل والحيازة الجماعية ضمن الملكية العامة للدولة والتي تؤول إلى الفئات المسيطرة على السلطة من خلال سياسة جباية الضرائب ونظام الالتزام وإقطاع الجند... إلخ^(١).

إذن فإن اتساع الدولة، وسياسة عثمان، وتكون الفئات الاجتماعية الجديدة من العرب في الأقطار المفتوحة، إن هذه الظروف قد أخذت تتسج صورة جديدة «لنظام الاجتماعى» في الدولة الإسلامية: هو النظام القائم على إفصاح المجال أمام فئة اجتماعية مهيمنة لتكوين الثروة، وممارسة أنماط استهلاكية تتناسب مع هذه الثروة المستجدة بالتالى.

وفي كتاب (الفتنة الكبرى.. على وبنوه) للدكتور طه حسين - يلخص هذه الظروف ذاكراً أن اتصال العرب بالمسلمين بالأقطار المفتوحة وخاصة الفرس والروم قدم ثلاثة احتمالات: (أ) احتمال أن يفرض العرب على هذه الشعوب طبائعهم العربية أو طريقتهم في الحياة، ولم يكن هذا ممكناً.

(ب) واحتمال أن تفرض هذه الأقطار على العرب طبائعها كاملة.. ولم يكن هذا ممكناً أيضاً.

(ج) والاحتمال الثالث - وهو الذى تحقق - هو المنزلة المتوسطة بين الاحتمالين السابقين: وهو أن تقوم (طبيعة) جديدة لا هى بالعربية الإسلامية الخالصة ولا بالرومية الفارسية الخالصة.

(١) أقر في ذلك، مثلاً:

(أ) د. عبدالعزيز الدورى، مقدمة في التاريخ الاقتصادى العربى، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٩.

(ب) د. محمد عمارة، فجر اليقظة القومية، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧.

(ج) أحمد صادق سعد، فى ضوء الأسلوب الآسيوى للإنتاج، تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٩.

ويزيد الدكتور طه حسين هذه الفكرة جلاء، حين يقول إن الفتح (خلق حاجات لم تكن معروفة ولا مألوقة وأظهر للعرب فنوناً من الترف وخفض العيش فأغراهم بها ودعاهم إليها ثم عودهم إياها ثم أخذهم بها أخذًا، إلا قلة قليلة جدًا استأثر الدين بها من دون الدنيا وشغلها التفكير في الله عن التفكير في المال والمنافع والحاجات).

ويضيف د. طه حسين: (قل إذن في غير تردد: أن أول الظروف التي كانت تقنضى أن يخفق على في سياسته هو ضعف سلطان الدين على نفوس المحدثين من المسلمين، وتغلب سلطان الدنيا على هذه النفوس).

وهكذا فإن العرب المسلمين الفاتحين وقد وجدوا في الأقطار المفتوحة جديدًا من مصادر الثروة فإنهم قد شكلوا فئة اجتماعية مهيمنة تشابك مع الفئات الاجتماعية الأخرى.

ولا يعنى هذا بالطبع أن الرسالة العربية الإسلامية قد ذابت وفنيت في عملية الفتح؛ فالحق أن هذه الرسالة رغم أنها قد فقدت جزءًا كبيرًا من قوة دفعها (الثورية) الأولى بوفاء قائدها الرسول عليه الصلاة والسلام والشيخين أبي بكر وعمر ومقتل أو وفاة أو شيخوخة الجزء الأكبر من الصحابة، جنبًا إلى جنب مع انحراف جزء آخر مع التيار الاجتماعي الجديد، نقول: إن هذه الرسالة رغم ذلك قد بقي لها من قوة دفعها الأولى ما مكنها من أن تستوعب - بفكرة الجهاد - الكيان الاجتماعي والثقافي للأقطار المفتوحة لتشكل منها - شيئًا فشيئًا - عبر القرون الثمانية التالية لمولد الرسالة، أمة متكاملة عربيًا ضمن الدولة، الإمبراطورية الإسلامية الجديدة، مع أنماط الحضارات القائمة في داخل وعلى تخوم الأقطار المفتوحة.

إن التاريخ ينبئنا أن مسيرته صعودية وإن كان في شكل حلزوني... ونلاحظ هنا أن النظام الاجتماعي القائم على «التكامل الاجتماعي النسبي» في عصر الرسول عليه الصلاة والسلام والشيخين قد نجح في إرساء دعائم (الثورة)، ثم جاء النظام الاجتماعي الجديد فحمل النقيضين: بذرة من بذور الثورة (الجهاد) جنبًا إلى جنب مع عملية (تحويل الثورة إلى دولة واسعة) من خلال قيادة المد الحضاري القومي.

وإن ذلك النظام الاجتماعي القائم على (التوزع الاجتماعي) و (تحويل الثورة إلى دولة) هو ما واجهه على بن أبي طالب.

القيادة السياسية لعلي بن أبي طالب:

من التفاعل بين الشخصية، والنظام الاجتماعي، ينتج السلوك، سلوك الفرد العادي وسلوك الفرد القائد، وقد عرضنا فيما سبق لمكونات شخصية الإمام علي، ومكونات النظام الاجتماعي الذي واجهه حين بدأ مباشرة قيادته السياسية.

فما خصائص القيادة السياسية لعلّي في ضوء التفاعل بين هذين العاملين؟
.. أبرز هذه الخصائص هي «الثورية المستمرة» - وإن شئت فقل: الإصلاح الثوري، إذا
جرينا على تسميته مصلحاً.

وعلى بن أبي طالب مرشح لهذه الخصيصة، بحكم شخصيته وبحكم ظروف النظام
الاجتماعي معاً، فهو بحكم شخصيته شجاع وزاهد، وسابق إلى الدين وناشئ في كنف النبي،
وهو من أصل اجتماعي حافظ على التغيير، وهو فقيه ومتبحر في علوم الدين.

فإذا التقت هذه الخصائص الذاتية مع نظام اجتماعي جديد يسمى - كما رأينا إلى وإنشاء
قوة اجتماعية عربية جديدة، والعدول عن مشروع (استمرار الثورة) إلى مشروع (بناء الدولة)
على أكتاف هذه الفئة - فماذا عساها أن تكون النتيجة المتوقعة؟

إن النتيجة التي لا نتيجة سواها هي: الرفض والمقاومة والتواصل، أي رفض النظام
الاجتماعي الجديد، ومقاومة استمراره، والسعى إلى صياغة النظام طبقاً للتواصل مع الأصول
«الجزرية» التي أتى بها الرسول عليه الصلاة والسلام من الوحي وطبقها، كما عمل على
تطبيقها من بعده الشيخان.

وهكذا تمثلت القيادة السياسية لعلّي بن أبي طالب في محاولة قطع استمرارية النظام
الاجتماعي المستحدث، والعمل على تحقيق استمرارية النظام الاجتماعي الأصلي الذي أنجبته
ثورة الإسلام.

هذا عن الغايات، أما عن الأسلوب، فإن القيادة السياسية لعلّي قد حققت انسجاماً بين
الغايات وبين أسلوبها، فكان الأسلوب أبعد ما يكون عن التكالب على المصالح الجديدة، أو اتباع
ذرائع الترغيب والرهيب بحسب ولاءات الأفراد والجماعات.

وبهذه الخصائص في الغايات وفي الأسلوب، أخذ على بن أبي طالب يجرى سياسته للأمور
في نموذج متفرد للقيادة السياسية متجسداً في: «اتخاذ القرار السياسي» وفي «صنع
السياسة» وفي «إدارة الصراع». ويمكن لنا أن نتبين ملامح الغايات والأسلوب في قيادة على بن
أبي طالب إذا استعرضنا باختصار سياسة على في كل من هذه المجالات الثلاثة:

أولاً: في ميدان اتخاذ القرار السياسي:

لقد كان أول اختبار واجهه على بن أبي طالب، هو اختبار القيادة ذاتها. فقد واجه المجتمع
العربي والإسلامي بعد مقتل عثمان موقفاً عصيباً، فمنذ أحاط المؤتمرون من مصر والبصرة
بعثمان وهم عدة آلاف مدججة بالسلاح، وقتلوه، ظلت المدينة عدة أيام بلا خليفة، وقد فرض
الناثرون الرعب والخوف على أهل المدينة - من جهة - بينما عجز أولئك الناثرون عن اختيار

خليفة جديد من جهة أخرى. حيث تأبى عليهم طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبدالله بن عمر وكذلك على بن أبي طالب.

وقد كان على بن أبي طالب في فترة «الفتنة» التي أحاطت بالمدينة قبيل قتل عثمان يأخذ موقف الحريص على مجرى العدالة الاجتماعية وقمع استغلال الولاة، والحرص على حياة خليفة رسول الله، في نفس الوقت، فلما قتل عثمان اتجه الثائرون إلى على فكان يناي، حتى سدت المنافذ أمام الثائرين وأيقنوا أنهم إن لم يولوا خليفة على المسلمين قبل رحيلهم من المدينة فإنهم سيهلكون لا محالة. فحينئذ أقبلوا على على وأقبل الأشتر النخعي (من قادتهم) فبايع علىاً ثم تبعه الناس، وهكذا كان قرار على بقبول الخلافة (من القادة) قراراً سياسياً تمثلت فيه كل المعاني التي ذكرناها عن نموجه في القيادة فهو يأبأها حين تنور شجاعته في الحق إزاء مقتل خليفة رسول الله، وهو يقبلها حين تنور نوازع الحفاظ على رسالة (الثورة) والحفاظ على المجتمع من شواجر الفتنة والفوضى، ثم هو حين يقبلها يأبى - بحكم ما جبل عليه من شجاعة واستقامة - إلا أن تكون البيعة من الجميع للخليفة الذي ارتضته جماهير المسلمين في المدينة ومكة وممثلي الأمصار؛ ولذلك فقد كان حريصاً على أن يبايع له كل من طلحة والزبير إذ كان يعلم من أمرهما أنهما طامعان في الإمارة، وكان حريصاً على أن يبايع له أهل العراق، وكان حريصاً على أن يبايعه معاوية بن أبي سفيان وإلى الشام منذ عمرو الذي كان يتأبى.

وهكذا، فبعد أن اتخذ قراره السياسي بقبول البيعة، أخذ قراراً سياسياً ثانياً بضرورة تحقق الإجماع في هذه البيعة حتى لو كره خصومه، أي حتى لو اضطر أن يستكرهم على الميالة استكرها، ومن ثم فقد دخل في دائرة إدارة الصراع مع خصومه منذ تلك اللحظة التي بدأ فيها مباشرة مهمة القيادة.

ثانياً: صنع السياسة:

ونقصد هنا سياسة على للرعية والولاة. ولن نفصل في هذا الجانب فهو مذكور في الكتب السائرة وإنما يهمنا أن نقول أن هذه السياسة كان قوامها الاشتداد على الولاة كدأب عمر بن الخطاب في محاسبة الولاة، ثم توزيع جميع القى في بيت المال على المرافق والمحتاجين، على خلاف في ذلك مع سنة عمر الذي كان يوفر شيئاً في بيت المال لطوارئ الأيام. كذلك نذكر عدل على بن أبي طالب، وتطبيق هذا العدل على نفسه في مواجهة الرعية، وعلى أفراد المسلمين فيما بين بعضهم البعض، فكان ذلك نموذجاً للمصلح الذي يرفع (الرسالة) الثورية في ولايته أمر المسلمين.

ثالثاً : إدارة الصراع؛

لقد اندمج اتخاذ القرار كما قلنا في إدارة الصراع، فإذا القرار السياسي العلوى منذ البداية قرار في الصراع، والقرارات في إدارة الصراع إما أن تكون قرار حسم، أو قرار تأجيل^(١).

من واقع استعراضنا لشخصيته، والظروف الاجتماعية التي جبهت هذه الشخصية، لا بد أن نستنتج أن القرار الذي يرضيه على بن أبى طالب هو قرار الحسم لا قرار التأجيل. ولعل اندفاع الإمام في تنفيذ قرار الحسم، كان يجد أساسه في إدراكه لطبيعة الصراع الاجتماعي الذي شجر في الدولة الإسلامية الوليدة والذي تنتظره منه في المستقبل رياح أشد وأعتى. فربما أدرك على بن أبى طالب أن ذلك الصراع - إذا استخدمنا المصطلحات المعاصرة - صراع بين (الثورة) و(الثورة المضادة)؛ فهو صراع مصيري، بل هو صراع بين نموذجين من نماذج الحضارة: النموذج العربي الإسلامي الأصيل والأصلي، القائم على تحقيق التكافل الاجتماعي والحيلولة دون اشتداد الاستغلال الطبقي والاجتماعي، ثم النموذج والقائم على الاستزادة من الثروات المادية.

وفي الصراع الحضاري كما يقول حامد ربيع، هناك ثلاثة أنواع من الحلول^(٢)؛ إما الصدام وإما التعايش وإما الاستيعاب، فالصدام يتضمن تصفية أحد الطرفين للآخر، والتعايش يتضمن قبولهما المتبادل للوجود، والاستيعاب يتضمن هضم أحدهما للآخر حضارياً. وقد أدرك على بن أبى طالب أن صراعه قادم لا شك فيه، ضد قوى الارتداد بالإسلام، أي بالنموذج الحضاري العربي الإسلامي، إلى حيث تسود قيم النموذج الحضاري النقيض.

وفي نفس الوقت كانت القوى صاحبة المصلحة في النظام الاجتماعي الطبقي المستحدث مستعدة لأن تقاتل من دون مصالحها الجديدة، حتى لو فنى منها الكثير، ولم تكن هذه القوى في حاجة إلى أن تجهد نفسها بحثاً عن رمز اجتماعي وديني تختفى من ورائه، فقد أمدتها الأحداث برمز أي رمز هو القصاص من قتلة عثمان، باعتبار هذا القصاص قضية دينية (ضرورة إنفاذ حدود الله وأن من يعطلها كافر يحل قتله) وقضية اجتماعية وأخلاقية أيضاً كما هو معروف.

وهكذا أخذ يتواجه معسكران: معسكر (الثورة الاجتماعية)، إذا صح هذا التعبير، ويقوده على بن أبى طالب، وقد عمل في اتجاه ما آمن به وما بوع عليه، فعزل عمال عثمان على

(١) د. حامد ربيع: من يحكم في تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٥، ص ٦٣.

(٢) د. حامد ربيع: تأملات في الصراع العربي - الإسرائيلي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

١٩٧٦، وانظر تعليقنا عليه في: الثقافة العربية، طرابلس، ١٩٧٦، ص ص ١٢٩-١٣١.

البصرة ومصر واليمن ومكة وكذلك عزل معاوية - وكان هذا الموقف منسجماً بطبيعة الحال مع إنكار (علي) للجور والعسف الذي جرى به هؤلاء العمال، وإنكاره للعصبية التي أتت بمعظمهم أصلاً وخاصة معاوية بن أبي سفيان، ابن عم عثمان الخليفة المقتول.

وأيضاً فقد حرص على أن يمكس بطلحة والزبير في المدينة جرياً على سنة (عمر) في إبقاء أصحاب رسول الله في المدينة طبقاً لما أشار عليه أبو بكر في ذلك، حتى لا يدلوا بسابق إسلامهم ويثيروا فتناً، ثم سمح (علي) لطلحة وزبير أن يرحلا إلى مكة للعمرة.

وعلى الجانب الآخر كان هناك المعسكر المعادي والذي يتزعمه معاوية في الشام والذي رفض مبايعة الخليفة الجديد، وأعلن عزمه على القصاص وأخذ الناس يلتفون حول قميص عثمان في دمشق ويكون. وفي مكة ذاتها أخذ طلحة والزبير يثيران الناس وكانت هناك عائشة زوج الرسول ﷺ، فعمل الثلاثة على إثارة جمهور المسلمين في مكة ضد الخليفة الجديد والمطالبة بدم عثمان... وكانت عائشة رضى الله عنها تتقم على علي بن أبي طالب لأسباب عدة يرويها رواية السنة: فمن ذلك ما قيل من أنه أشار على النبي بتطليق عائشة بعد حادثة الإفك وكذلك زواجه من أسماء الخثعمية زوج أبي بكر وأم محمد بن أبي بكر وأيضاً إنجابه النسل الوحيد الباقي للرسول من فاطمة في حين كانت عائشة عقيمًا، كذلك يشار إلى تردد (علي) في البيعة لأبيها أبي بكر نظراً لأنه وعمه العباس كانا يريان الخلافة حقاً لبني هاشم بعد الرسول ﷺ وأخيراً فعمل عائشة كانت تود لو ببيع طلحة وهو من قبيلة «تيم» التي تنتمي إليها وأبوها أبو بكر.

وقد تعجل طلحة وزبير وعائشة مواجهة علي بن أبي طالب، بينما كان يتأهب لحمل معاوية على البيعة ولو بالقتال، وتوجه طلحة وزبير وعائشة إلى البصرة يجمعون الناس ويحملون لواء التمرد على الإمام.

موقعة الجمل:

ذهب طلحة وزبير وعائشة في جند كثيف إلى البصرة، وجرى بمائشة على جملها فخطبت في الناس - كما يقول الدكتور طه حسين في «الفتنة الكبرى» - وأخذت تقول: [غضبنا لكم من سوط عثمان وعصاه أفلا نغضب لعثمان من السيف؟ ألا وإن خليفكم قد قتل مظلوماً، أنكرنا عليه أشياء وعاتبناه فيها فأعجب وتاب إلى الله، وما يطلب من المسلم إن أخطأ، أكثر من أن يتوب إلى الله، ولكن أعداءه سطوا عليه فقتلوه واستحلوا حرماً ثلاثاً: حرمة الدم وحرمة الشهر الحرام وحرمة البلد الحرام].

وكثيرة هي الزوايا التي يمكن أن نتناول من خلالها «واقعة الجمل» وغيرها من الواقعات،

غير أن ما يهمنا في سياق بحثنا الحالي، هو النظر أولاً من زاوية القيادة السياسية لعلى بن أبي طالب، أى السلوك القيادي العلوي في هذا الموقف.

ويهمنا هنا أن نوضح ما يلي:

(١) عزم على بن أبي طالب على ملاقاته المتمردين الذاهبين إلى البصرة، ولذلك فقد عبأ جنده لملاقاة القوم في البصرة، وكان ذلك انطلاقاً من إيمانه بأنه من بايع فلا بد أن يفي بواجبات البيعة، وقد بايعه طلحة والزبير.

(٢) إن علينا أن نرى حريصاً على ألا يبادئهم بالعدوان، بل وكان حريصاً على ألا يقع القتال، ولذلك فقد بادأهم بالمناظرة والحجة، وهكذا أرسل إليهم أحد صحابة رسول الله لمناقشتهم وهو القينقاع بن عمر - ولما أن وقعت الواقعة خرج (علي) نفسه فدعا طلحة والزبير ليكلمهما، وأخذ في مناقشتهما حول جدوى القتال، وتروى بعض المصادر أن الزبير استجاب فلم يشترك في الواقعة، وإن كان قد قتل في طريقه منها، ورغم عناد طلحة وإصراره على القتال، فقد حاول (علي) محاولة أخيرة للنصح فكان أن أخرج أحد الشباب من أهل الكعبة يحمل مصحفاً وأخذ يدعو إلى الفصل ما بين الصنفين المتواجهين، فقتله أنصار الجمل، وهنا أدرك (علي) أن خصومه جادون في القتال ماضون فيه فقال: «الآن طاب الضراب».

(٣) انتصر على بن أبي طالب في الواقعة أول النهار، ورغم ذلك عاد أصحاب طلحة والزبير مرة أخرى ومعهم عائشة في «الهودج» فوق جملها تحمس الناس، وقد ثبت على وأصحابه، حتى هزموا خصمهم مرة أخرى في آخر النهار.

(٤) رغم الانتصار المبين لعلى بن أبي طالب فإنه لم ينتقم من أحد من خصومه، بل لقد كرم عائشة وردها إلى مكة مع نفر من الرجال والنساء، وقد اكتفى من أهل البصرة بالمبايعة وترك عليهم ابن عمه عبدالله بن عباس وارتحل إلى الكوفة.

العزم والحزم.. التفوق على الخصوم، الشجاعة والفروسية في القتال والمناجزة، الإصرار على الحق ومن ثم على البيعة، تلك هي السمات القيادية العلوية التي أبرزتها واقعة الجمل. ولكن المزيد من خصائص القيادة السياسية العلوية سوف تتضح لنا من تفحص واقعة أخرى كانت هي الواقعة الفاصلة في حياة على بن أبي طالب بأسرها، هي واقعة صفين.

واقعة صفين:

رأينا من إدارة الصراع بين على بن أبي طالب وخصومه الذين رفضوا البيعة وطالبوا بدم عثمان والذين كانت تدفعهم في الحقيقة مخاوفهم من صرامة الخليفة الجديد وتدفعهم الرغبة في الولاية (رغبة طلحة في ولاية الكوفة ورغبة الزبير في البصرة)، نقول: رأينا من

إبارة الصراع بعض خصائص على، ولكن جماع خصائص هذه القيادة يتضح لنا في إدارة الصراع مع معاوية بن أبي سفيان، زعيم ما أسميناه بالثورة المضادة في الدولة الإسلامية الجنبدة، والقابع في الشام منذ عمر.

(١) وأول ما يصادفنا من السلوك القياىى لعلى بن أبى طالب هو إصراره على مقاومة عصيان معاوية بن أبى سفيان والقضاء عليه، حتى تستقيم للخلافة سلطتها فتستطيع أن تمارس استئناف سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام والشيخين فى سياسة المجتمع الإسلامى الجنبد.

وإننا لا نبرئ علماً من التوازن البشربة الأولى، فلا ريب أنه كان يعتقد أنه أحق بالخلافة من أبى بكر ومن عمر ومن عثمان، لما كان يراه من أنه من بنى هاشم وأنه ابن عم الرسول ولأنه زوج ابنته فاطمة، ووالد الحسن والحسين، وهو من هو فى علمه وتقفه فى الدين، ولذلك فإن إصراره على أن يستقيم له الأمر بالبيعة من الجميع ولو باستخدام العنف ضد الكارهين لهذه البيعة إنما يتداخل فيه جانب شخصى لا شك فيه. ولسنا نعتقد أن وجود العنصر الشخصى فى أية قضية، مما يحمل فى حد ذاته قرينة عليها بالفساد، ولكن إذا تطابق هذا العنصر الشخصى مع مقتضيات الرسالة (الثورية)، فلا تثريب على صاحب الأمر أن يطالب بما هو أهل له.

وعلى هذا النحو من الإيمان المزدوج: إيمانه بحقه الشخصى فى الخلافة، وإيمانه بضرورات إنفاذ رسالة الله التى جسدها محمد عليه الصلاة والسلام، سار (علئ) ليحمل معاوية على الجادة.

(٢) ولم يبدأ على بن أبى طالب مع ذلك بالعدوان على معاوية، وإنما أرسل إليه من يدعو له للبيعة، وهو رجل من أصحاب النبى، هو جرير بن عبدالله البجلئ، ولكنه لم يظفر من معاوية بشئ، وإن كان معاوية قد أرسل إلى (علئ) فيما بعد رسالة مع أبى مسلم عبدالرحمن، وفيها من شدة اللهجة ما يحمل على الظن أن معاوية لم يقصد بها فتح باب الحوار وإنما سد الذرائع أمام مثل ذلك الحوار والتمهيد للمواجهة. فحينذاك، وحينذاك فقط، استيقن على بن أبى طالب أنه قد استنفد الوسائل (السلمية) فى صدامه مع معاوية، وأنه لا يبقى أمامه إلا القتال، فوجه رجاله إلى (الحرب) والاستعداد للقتال، وكذلك فعل معاوية وسبق علماً إلى «صفين».

(٣) وهكذا دخل على بن أبى طالب واقعتين حريبتين بعد أقل من عام من توليه الخلافة: فقد كانت واقعة الجمل بعد ستة شهور من خلافته، ومكث بعدها شهوراً أربع فى الكوفة يحضر للقاء معاوية فكان الدخول إلى صفين بعد عشرة شهور من ولايته إمارة المؤمنين. وقد ظل الجيشان قرابة شهرين يتواجهان دون قتال. وقد استبسل رجال على فى القتال

وكان منهم عمار بن ياسر الذى قال له الرسول عليه الصلاة والسلام: (ويحك يا ابن سمية - تقتلك الفئة الباغية). وقد حمل (عليّ) وأصحابه على معاوية حتى كاد ينهزم.

وهذه البسالة والشجاعة والفروسية والعناد فى الحق هى من أبرز خصائص قيادة على. (٤) غير أن هناك حقيقة من حقائق «صفين»، بل لعلها أهم حقائقها على وجه الإطلاق، تبرز لنا خاصية جديدة من خواص على بن أبى طالب قائدًا سياسيًا، تلك هى واقعة التحكيم. فبينما كان القتال مشتدًا كأقصى ما يكون الاشتداد، وبينما يحمل الإمام ورجاله على معاوية، حتى همّ معاوية أن يفر لولا أن تذكر قول الشاعر:

أبت لى همتى وأبى بلأى وأخذى الحق بالثمن الريح
لأدفع عن مآثر صائحات وأحمى بعد عن عرض صحيح

- بينما ذلك، إذا بالمصاحف ترفع من أهل الشام، وتدعو أغلبية جيش (عليّ) عليًا إلى قبول ما يعرضه أهل الشام، فيخشى (عليّ) مخالفة الأغلبية فينقسم الجيش، ويقبل على عرض معاوية ويرسل إليه من يسأله عن مقصده، فيقول معاوية: أردت أن نختار منا رجلًا وتختارون منكم رجلًا وتأمركما أن يحكما بما فى كتاب الله فيما شجر بيننا من خلاف.

وقد ألحت الكثرة من رجال (عليّ) عليه فى قبول التحكيم، وكان أكثر الناس تحمسًا «الأشعث بن قيس الكندى»، وقد أسلم متأخرًا وتولى فى عهد عثمان على جزء من أرض فارس، وقد عزله على بن أبى طالب عن ولايته، ثم استصعبه واستصلحه، كما يقول الدكتور طه حسين فى «الفتنة الكبرى»، وكان الأشعث من دواهي العرب، وقد قابل معاوية موفدًا من قبل على، ويشك بعض المؤرخين أنه اتفق مع معاوية على تدبير نهاية الإمام.

ويعد أن قبل (عليّ) التحكيم، جاء دور الأشعث ومعه كثيرون، فأكرهوه على أن يختار أبا موسى الأشعرى بينما كان يرغب فى ابن عمه عبد الله بن عباس، والمعروف أن أبا موسى لم يكن من أولياء على بن أبى طالب وإنما بايعه حين كان واليًا على الكوفة بعد لأى وتردد يشوبه الكثير من التخاذل ضد على، وذلك بينما اتفق أهل الشام على اختيار داهية العرب عمرو بن العاص والى مصر فى عهد عمر، والذى عزله عثمان، والذى ظلت تراوده الأحلام بالعودة إلى مصر بأى ثمن - ولذلك انضم إلى معاوية رغم أنه كان من المحرضين على الخليفة المقتول.

وهكذا بينما اختار (عليّ) رجلًا من غير خصلاته، فإن معاوية اختار واحدًا من بين أصحابه ودهاته. وقد التقى الحكمان وكتباً صحيفة [بأن هذا ما تقاضى عليه على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان، وأنا عند حكم الله، وبيننا كتاب الله فيما اختلفنا فيه من فاتحته إلى خاتمته، والحكمان عبد الله بن قيس (أبو موسى الأشعرى) وعمرو بن العاص، وأخذنا عليهما عهد الله وميثاقه ليحكما بما وجدا فى كتاب الله نصًا فما لم يجدها فى كتاب الله عملاً فيه

بالقسمة الجامعة غير المفرقة، وأخذنا من على ومعاوية ومن الجندين كليهما عهد الله ليقبلن ما قضيا به عليهما].

ويعد يومين من كتابة هذه الصحيفة أخذ (علي) ورجاله في الرجوع إلى الكوفة، ولكن ما بين قابل للتحكيم وما بين رافض للتحكيم ويرى أن الحكم لله وحده وأن النزول على حكم الله هو بقتال الفئة الباغية (معاوية) حتى تقى إلى أمر الله، كما يقول القرآن.. وهؤلاء هم الفئة التي صارت تسمى في التاريخ الإسلامي «الخوارج».

وقد اجتمع الحكمان وطال تناوؤهما واتفقا فيما بينهما - قبل أن يخرجوا برأيهما النهائي إلى الناس - على أن يخلعا علياً ومعاوية، ثم يترك الأمر شورى للمسلمين يختارون خليفتهما كما يشاؤون. ولكن عند إعلان الرأي النهائي هذا على الناس حدثت الطامة الكبرى - أو المكيدة التي أوجدها داهية العرب عمرو بن العاص: فقد قدم عمرو بن العاص أبا موسى: فقام هذا وأعلن أنهما اتفقا على خلع معاوية و(علي) وردّ الأمر شورى بين المسلمين، وبعد ذلك قام عمرو بن العاص فقال: إن هذا قد خلع صاحبه، وأنا أخلعه مثله ولكني أثبت صاحبي.

هنا اعتبر أهل الشام أن علياً قد خلع من إمارة المؤمنين وأنها صارت إلى معاوية بن أبي سفيان وعادوا إلى الشام وسلموا عليه أميراً للمؤمنين، فصارت النتيجة الواضحة للتحكيم على هذا النحو، المعول الأكبر في هدم صرح الخلافة العلوية وإعطاء سند (الشرعية القانونية) لمعاوية، رغم أن (الشرعية السياسية) لم تزل في جانب الإمام.

وبعد هذا العرض المسهب لما حدث في التحكيم، نريد أن نصل إلى خصيصة هامة من خصائص القيادة السياسية لعلي بن أبي طالب، لم تقدر لها الظروف أن تبرز فيما سبق من أحداث، هذه الخصيصة وهي «القصور التنظيمي» للقيادة السياسية، وتعود في رأينا إلى سببين متكاملين:

السبب الأول: أن (علي بن أبي طالب) في رأينا كان تقياً وفارساً وفقياً ولكن لم يكن منظماً Organizer. والقائد المتفوق كمنظم هو الذي يمتلك براعة استثنائية في رسم الاستراتيجية والتكتيك - ليس في سير الحرب ذاتها كعملية عسكرية فقط وإنما في سير عملية الصراع السياسي على الإجمال. وقد كان قبول علي بن أبي طالب للتحكيم وقبوله لأبي موسى الأشعري حكماً، هو «الخطأ القاتل» بكل معنى الكلمة.

ولا نبالغ إذا قلنا إن هذه الواقعة المزدوجة (التحكيم واختيار أبي موسى) هي التي قررت مصير علي بن أبي طالب، ليس الإمام فقط، وإنما مصيره العضوى الجسدى نفسه فيما بعد. وقد يقال أن علياً لم يكن أمامه الخيار في ذلك، فقد وقفت الكثرة من رجاله إلى جوار التحكيم وإلى جوار أبي موسى، فلم يكن بدّ من أن يسير فيما تراه الكثرة. ولكننا هنا نجد

ملفحاً آخر من ملامح (القصور التنظيمي) لدى على بن أبي طالب، فائداً سياسياً فهو قد ساس رجاله بالتقوى والعدل واليسر في الدين - وهو ما سبقه إليه عمر بن الخطاب - ولكنه افتقد الشدة التي تميز بها عمر، فقد كان ابن الخطاب شديداً على رجاله وولاته حتى من صحابة رسول الله، فكان يجمع إلى تقواه وورعه وعدله في الدين، شدة وعزماً لا يلين. أما على بن أبي طالب فإنه كان يفتقد هذه الشدة وهذا الحزم تجاه - القواعد - وكان ينجح إلى رأيها فيخسر قضيته، بل وكان يفتقد هذه الشدة وهذا الحزم، وهو الأمر الأخطر، تجاه (قيادات الصف الثاني) من أمثال الأشعث بن قيس الكندي.

ونتيجة لهذا (القصور التنظيمي) في القيادة السياسية لعلى بن أبي طالب، فإن الثورة الاجتماعية - معسكر الثورة في الدولة الإسلامية - قد افتقدت المقوم الرئيسي لنجاحها وهو «الانضباط التنظيمي». كانت قوى الثورة تتمتع (بالديمقراطية) في مواجهة الإمام - إذا صح هذا التعبير - ولكن هذا الإمام لم يضبطها (بالمركزية)، اللازمة.

هذا هو السبب الأول، وهو يرجع إلى العامل الذاتي (الشخصية القيادية العلوية).

أما السبب الثاني لظاهرة القصور التنظيمي للقيادة السياسية لعلى بن أبي طالب، فهو يكمن في العوامل الموضوعية أي العوامل المتعلقة بتطور (الثورة) ذاتها كعملية موضوعية مستقلة عن قائدها المشخص، فلم يكن الأمر إذن راجعاً فقط إلى مجرد نقص معين في بعض القدرات الذاتية لعلى، وإنما كان يرجع بالإضافة إلى ذلك إلى عوامل أخرى، نبرز أهمها فيما يتعلق بالمقارنة بين (علي) ومعاوية فيما يلي:

١- إن علياً قد واجه قيادة المجتمع الإسلامي وقد ترهلت قواه الثورية التي خاضت غمار التغيير مع الرسول عليه الصلاة والسلام وأبى بكر وعمر والصدر الأول من خلافة عثمان على النحو الآتي:

أ) إن مقتل عثمان بن عفان في حد ذاته قد أثار انقساماً في المجتمع الإسلامي الوليد، سواء لأسباب حقيقية أو لأسباب رمزية، وألقى على كتف الإمام الجديد بأعباء مضاعفة فيلزم راب الصدع حيث لا يمكن راب الصدع وخاصة مع من اتخذوا مقتل عثمان ذريعة لبلوغ (حاجة في نفس يعقوب).

ب) اعتزال جماعة من خيرة الصحابة أمر الفتنة، واعتزلهم أمور الخلافة، فلم يكونوا عوناً لعلى بن أبي طالب، ومن أبرزهم سعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر بن الخطاب.

ج) طمع جماعة من صحابة رسول الله، في الخلافة أو على الأقل في ولاية الأمصار المفتوحة، وخاصة طلحة والزبير، وقد رأينا أمرهما وكذلك أمر عائشة زوج الرسول عليه السلام وابنة أبي بكر الصديق.

د) ثم هناك مجموعات المتمردين التي انتمرت بعثمان بن عفان وقتلته وهي المجموعات التي نقت على سيرة عثمان بن عفان في مصر والكوفة والبصرة خاصة. وهذه المجموعات لم تكن مدفوعة بإيمان عقائدي كامل ولا تنظيم وقيادة ثورية معترف بها، وإنما كانت تسعى إلى تغيير الواقع السياسي والاجتماعي العثماني والأموي، انطلاقاً من رغبتها في تغيير أوضاعها الفردية والفئوية ذاتها، ومن هنا فقد صارت عبئاً على (علي) بن أبي طالب، وخاصة بعد أن أدلت عليه باختيارها له ومبايعتها إياه على نحو ما رأينا.

هـ) ويضاف إلى ما سبق، أن قوى التغيير الاجتماعي كانت تضم فئة من المجاهدين المؤمنين (مثل عمار بن ياسر) ومجموعة من الصحابة و حفاظ القرآن وقراءه وكانت تحتكم إلى القرآن في كل موقف ولا ترضى من إمام المسلمين إلا ما تراه موافقاً للعقيدة في كلياتها وجزئياتها، خاصة وقد شهدت رسول الله ﷺ وخاضت حروبه وغزواته ومن بعده خلفاءه، فكان يتحتم على علي بن أبي طالب أن يحسن معاملتها وأن يراعي مشاعرها أيما مراعاة.

و) فإذا أضفنا عاملاً طبيعياً في النهاية، وهو انتهاء قيادات الثائرين بالوفاة أو القتل، لاتضح في الحقيقة أمامنا صعوبة موقف علي بن أبي طالب. فأولئك الثائرون - كما يقول طه حسين - قتلوا في سبيل هذه الثورة قبل أن يتموا تثبيتها: قتل حكم بن جبلة في البصرة قبل أن تقع موقعة الجمل، وقتل زميله البصري حروج بن زهير في النهروان. وقتل محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر في مصر، ومحمد بن أبي حذيفة في الشام، ومات الاشر في طريقه إلى مصر، وقتل عمار بن ياسر في صفين.

٢- أما معاوية بن أبي سفيان - خصم (علي) في الصراع المصيري - فقد ساعدته الظروف الذاتية والموضوعية فأحسنّت مساعدتها: ففي الجانب الذاتي نجد أن معاوية كان يمتلك الصفة التي يفتقدها (علي) بالذات: فقد كان معاوية منظماً organizer من الطراز الأول: بارعاً في رسم الاستراتيجية والتكتيك. شديد اللين والمرونة حين تجب سياسة اللين والمرونة، عنيف غاية العنف إزاء رجاله وقيادات (الصف الثاني) إذا لم يكن بد من العنف، وكان إلى هذا كله داهية من دهاة العرب، وأعانه داهية وناب من أنياب العرب هو عمرو بن العاص.

لذلك توفرت لمعاوية القدرة على التخطيط والتنظيم لا يلوى على شيء، فإذا أدركنا أن معاوية لم يكن يقف عند حدود الالتزام العقيدى الدينى وإنما كان يسعى إلى (ضبط) صفوفه بالترغيب الدنيوى المصلحى تارة وبالترهيب البتار تارة أخرى، دون نظر إلى مدى اتفاق الترغيب والترهيب مع أحكام الدين وضرورة التقوى في المال والمعاملات، لتجلت أمامنا سيرة معاوية في الصراع.

وفي الجانب الموضوعى فإن معاوية بن أبي سفيان لم يكن مجرد منظم وداهية ورجل

سلطة، وإنما هو قبل ذلك وبعد ذلك شخص قد تهيأ له مسرح الأحداث في المجتمع الإسلامي الجديد: مسرح أخذت تشب فيه المصالح (الدنيوية) أظاها في أعناق فئات اجتماعية جديدة من العرب، وهو ما سبق أن استعرضناه في بحثنا للنظام الاجتماعي آنئذ، وإذن فقد كان معاوية (رجل النظام الاجتماعي المستحدث)، رجل (الثورة المضادة) كما قلنا. هذه هي العوامل الذاتية والموضوعية وراء ظاهرة «القصور التنظيمية» في القيادة السياسية، وهي الظاهرة التي أوضحتها أزمة الصراع بين علي ومعاوية وخاصة أثناء، وهي أعقاب، موقعة «صفين» من خلال التحكيم. وهذه الظاهرة لا تستوعب كافة جوانب القيادة السياسية العلوية، بل هي في حقيقتها تلوين نوعي لنموذج (القائد الثوري أو المصلح Reformer). إن علياً (إذن هو قائد ثوري) أو مصلح ولكن مع تكوين خاص لقدرته التنظيمية، وهذا الجانب الخاص بالقدرة التنظيمية يمثل وجه (الاختلاف) لعلي بن أبي طالب - كقيادة مشخصة معينة - عن النموذج التجريبي العام للقائد المصلح. وقد برز كل من الجانب العام والجانب الخاص هذان، في قيادة (علي) لجولات الصراع الأخرى، وأهمها جولة الصراع بين (علي) والخوارج والتي أخذت طابعها المتبلور في موقعة «النهران».

موقعة النهران:

حين بلغ علياً أمر ما انتهى إليه الحكماء، خطب في الناس، ذاكرًا [أن الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حكم الكتاب وراء ظهريهما وارتأيا الرأي من قبل نفسيهما، فأماتا ما أحيا القرآن وأحييا ما أمات القرآن]، ودعا الناس إلى الجهاد وأخذ يتأهب لقتال أهل الشام.

وكان (علي) بعد موقعة «صفين» قد ساء موقف أولئك المنادين بالحاكمية أو «المحكمة» أو من صاروا يسمون فيما بعد «بالخوارج»، والذين اعتزلوا في (حروراء) وكان عددهم نحو اثني عشر ألفاً. وأراد علي بن أبي طالب أن يحقق «وحدة الصف» فأرسل إليهم عبدالله بن عباس ليحاوهم ويقنعهم، ثم ذهب بنفسه إليهم وحاورهم وأقنعهم بأن قبول مبدأ التحكيم ليس فيه مخالفة لأمر الله، فرجعوا إلى الكوفة وهم يعتقدون أن علياً قد أقنع عن فكرة الحكومة (التحكيم)، فلما اتضح فيما بعد أن علياً لم يقلع عن التحكيم وأنه يمنح الحكمين تأييده خرجوا عليه مرة أخرى.

ولما ظهر أمر التحكيم ورفض (علي) وتأهب للمسير لقتال معاوية، كتب إليهم يدعوهم إلى الانضمام إليه لحرب أهل الشام فأنكروا عليه ذلك ذاكرين له أنه خالفهم حين كانوا يدعون من الأصل باستمرار القتال، وأخذوا يقطعون الطرق على رجال (علي) ويفسدون في الأرض - من

وجهة نظره - فلما أخذ يفد السير إلى الشام أقنعه رجاله بضرورة ملاقاته الخوارج لتسوية الحساب معهم قبل قتال معاوية، فسار بهم إلى «النهر».

ونكاد نرى في وقائع «النهر» الخصائص الرئيسية لقيادة علي بن أبي طالب كما يسلطانها فيما سبق وذلك على النحو التالي:

١- الإقدام والشجاعة، وذلك باتخاذ القرار بملاقاة الخوارج، رغم تأهبه لقتال معاوية في الشام.

٢- وفي قرار قتال الخوارج جانب آخر، هو انصياع (علي) لرأي الكثرة من أصحابه، وهم الذين أغروه بالتوجه لملاقاة الخوارج، فهنا نجد أن علياً لم يحسن التخطيط التنظيمي لعلاقته الصراعية مع الخوارج، فاندفع إلى حريهم دون تحسب لكافة احتمالات المستقبل.

٣- ومع ذلك فلم ينس علي نفسه، فهو لم يبدأ قتالهم إلا بعد أن أعذرهم وأنذرهم وأخذ معظمهم بالكتابة أو بالخطابة حتى عاد كثير من الخوارج إلى الكوفة، ولم يبق منهم إلا نحو ثلاثة آلاف. ولم يبدأ (علي) بالقتال إلا حين بادره هؤلاء الخوارج (الطامعون في الجنة) بالقتال فاستبسوا أيما استبس، ولكن علياً وجيشه حمل عليهم حملة شديدة حتى أفنهم إلى آخر رجل.

٤- ورغم الانتصار المبين لعل، فقد اتضح أنه لم يرسم الخطة الصحيحة لمعالجة أمر الخوارج. فهو قد هزمهم وقتلهم ولكن قتلهم وهزيمتهم قد ترك أخاديد في جبين الجبهة العلوية: فهام أبناء الكوفة والبصرة قد قتلوا بعضهم البعض في النهر في معسكر (علي) والخوارج معاً، وما من رجل إلا وقتل أباه أو أخاه أو أحد قرابته - فخيم اليأس والحزن على معسكر (علي) رغم النصر. فلما عاد رجاله إلى معسكر «النخيلة» قرب الكوفة أمرهم بمعاودة الاستعداد لقتال معاوية، وأخذ هؤلاء الرجال يتسللون خارجين إلى الكوفة مرة أخرى، عازمين على عدم معاودة القتال، [وكان معاوية قد بلغه نهوض (علي) إلى الشام، فنهض في أصحابه يسبق إلى صفين، ولكن علياً لم يقدم، فلما عرف معاوية ما كان من أمره مع الخوارج ومن رجوعه إلى الكوفة وتخاذل أصحابه عن القتال عاد إلى دمشق موفوراً دون أن يلقي كيداً^(١).

بذلك تناولنا عملية إدارة الصراع، من جانب القيادة السياسية لعل بن أبي طالب، وقد بدأ بإدارة الصراع ضد من أسماهم بالناكثين للبيعة: طلحة والزبير في موقعة الجمل، ثم إدارة الصراع ضد من أسماهم القاسطين - أو الظالمين - من أهل الشام وخاصة من خلال موقعة صفين ثم أخيراً إدارة الصراع ضد الخوارج أو من أسماهم بالمارقين - وخاصة من خلال موقعة النهر.

(١) د. طه حسين، الفتنة الكبرى، على وبنوه، دار المعارف، ١٩٧٥، ص ١٠٧.

ولكننا رأينا أن الظروف الذاتية والظروف الموضوعية قد راكمت ظاهرة (القصور التنظيمي) في قيادته السياسية، بدءاً من الجمل عبوراً بصفين وانتهاء بالنهروان. فلما أن تراكمت آثار الجولات الثلاث جميعاً استحالت ظاهرة القصور التنظيمي إلى ظاهرة (العجز التنظيمي)، والعجز التنظيمي هو باختصار «فقدان زمام المبادرة».

وهكذا فإننا بعد النهروان لا يصح أن نتحدث عن إدارة (علي) للصراع مع خصومه، وإنما بالأحرى ينبغي أن نتحدث عن إدارة خصومه للصراع ضده، حتى وضع القدر خاتمة هذا الصراع من بعد.

وقد تتالت مبادرات خصومه بعد ذلك على النحو التالي:

- ١- اتصال معاوية بأثرياء الكوفة والبصرة، بالأعطيات والمكاسب، وإثارة الفتنة بالبصرة.
- ٢- فتح معاوية لمصر بواسطة عمرو بن العاص وقتل واليها محمد بن أبي بكر، بل وقتل الأشتر النخعي بالسم عند «القلزم» قبل أن يلي مصر بدلاً من ابن أبي بكر.
- ٣- اتباع معاوية تكتيك (حرب العصابات) على أطراف العراق حتى أقضت مضاجع أهل العراق.

٤- حرب داخلية (حرب عصابات منتظمة أيضاً) أخذ يشنها الخوارج على علي، فاكتملت بذلك دائرة الحصار الدامي من حول علي بن أبي طالب.

فلما وصل علي بن أبي طالب إلى هذه الحال، ثارت في نفسه نوازع الفروسية والجهاد، فاستحث رجاله مرة أخرى وأخيرة - بعد أن استحثهم كثيراً كثيراً - وخاطبهم حتى أحسوا بالذنب، واجتمع له منهم جيش كبير، وبدأ هو يكمل استعداداته لقتال أهل الشام، وإذا به يلقي طعنة قاتلة من «الخارجي» عبدالرحمن بن ملجم - على نحو ما هو مذكور تفصيلاً في كتب السيرة.

وبذا أمضى (علي) فترة خلافته كلها في معارك متصلة من أجل تثبيت سلطته التي لم تثبت قط، ومن أجل الشروع في تحقيق (ثورة لم تتم).

وقضى علي بن أبي طالب، وقدر له أن يظل من بعد موته، رمزاً من رموز «الإسلام الحقيقي» عبر التاريخ، وعلماً على ضرورة وصيرورة التطور الاجتماعي (الارتقائي) الدائم.

* * *